ضَوابِطُ صِحَّةِ التَّوْثيقِ في تَفْسيرِ الْقُرآنِ الكَريمِ

محسن وهيب عبد
باحث اسلامي
العتبة الحسينية المقدسة

فحوى البحث

من المفترض على كـل من يتعامل مع كتاب الله العظيم، تفسيراً وتأويلا وتوثيقاً، انه مؤمـن به وحياً من الله –سبحانه– نزل من عنده على قلب الرسول محمدﷺ. وعليه، فـان النص القرآني حق وهذا يعني ضمناً أن الحق واحد ولا يتبدد أو يتعدد.

اذن فالمحاولات في تفسير القرآن الكريم، والموثقة بأدلة من خارج القرآن تصح فقط في حال كونها تطبيقات لواقع حقائق النص الكريم.

في البحث يحـاول السيد الباحث أن يقرر أن أية محاولة للبدء بالنص (كمادة وليست كحقيقة) انما هي محاولة للبدء لبلوغ الحق.

١. تمهيد:

بسم الله وبالله والحمد لله، ولا حول ولا قوة الا بالله، وصلى الله على سيدنا محمد واله ومن ولاهم، لا سيما بقية الله، واللعن الدائم على الظالمين أعداء الله.

قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [سورة البقرة: ١ -٥].

اية محكمة تشخص الهدى بالكتاب العزيز وتشترط له التقى والإيمان بالغيب، لذلك فلا حديث لنا مع من لا يؤمن بالله واليوم الاخر، وليس له منهج في معرفة القرآن والنهل منه كحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، بل لا ايمان له -كما يفترض -لا يدخل هذه المداخل لأنه لا ينتمي الى هذه الثقافة (ثقافة القرآن)، الا من شاء ان يقحم نفسه من المستشرقين بعجز مبين بل وأحيانا بقرف طائفي تشم منه رائحة الحقد والضغينة للإسلام ورسول الاسلام مما يأتون في محاولتهم التفسيرية، والمستشرقون -كما هو معروف -يلجـون الى القرآن كمن يدس السم بالعسل؛ بمقاصد تبشيرية او دوافع سياسية استعمارية، يتلقفه المستلبون بالدونية من الاكاديميين ويتصورون ضرورة التوثيق به، وهنا حتى الرد عليهم منتف لان المستشرق انما اقحم نفسه وهو مرفوض اصلا من الخوض في القرآن الذي يشترط التقى للمتعاملين معه.

ان من المفترض من كل من يتعامل مع النص القرآن ي انه مؤمن به وحيا (اي روح من امر الله)، وان المتابع له يجب ان يكون موقنا باليوم الاخر وانه محاسب على ما يصدر عنه. قال تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [سورة الرعد: ١].

فاذا كان الامر هكذا وهو كذا ولا غيره؛ فان النص القرآن ي هو الحق، قال الله تعالى:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾

[سورة البقرة: ٢٦].

وهذا يعني ضمنا ان الحق واحد لا يتعدد ولا يتبدد طبقا لقوله تعالى: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[سورة يونس: ٣٢].

اذن المحاولات في تفسير القرآن والموثقة من خارج القرآن تصح فقط في حال كونها تطبيقات لواقع حقائق النص القرآن ي. بمعنى اخر؛ ان اي محاولة للبدء بالنص كمادة وليس كحقيقة، انما هي محاولة للبدء بالحق ضنا لبلوغ الحق. والله تعالى يقول: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [سورة النجم: ٢٨].

٢. المنهج القرآني والمنهج الاكاديمي متعاكسان في عملية التعلم:

ان المنهج الاكاديمي في التوثيق والتعليم والتعلم والعلم؛ يبدأ بالأشياء فيجمع حولها المعلومات والحقائق ويوثقها لبلوغ حقائقها، فيضع مادة الدرس منطلقا ثم يضع منهجا منطقيا استقرائيا ليبلغ بالتوثيق عليه، ماهية او حقيقة تلك المادة.

وهذا النهج غير مجدي مع القرآن لأنه لا يؤدي وظيفته في التعلم ولا في التعليم ولا في الحصول على العلم... لماذا؟.

لأننا وكما قدمنا نؤمن ان النص القرآن ي هو الحقيقة، والبادئ بالحقيقة الى اين يريد ان يوصل؟!. انه لا يصل الى شيء، بل يؤدي الى التيه والضياع لأنه سبيل لترك الحقيقة وراء المتتبع او المتعلم.

فالتعلم والعلم من النص القرآني ينطلق من الحقيقة القرآنية الى الواقع الذي يتحدث عنه النص. ولذا فان التوثيق في النص القرآن ي يبدأ من الحقيقة القرآن ية متجها نحو واقع الوجود: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[سورة فصلت: ٥٣].

بمعنى ان وظيفة التفسير يجب ان تتم وفق التعليم بالمنهج القرآني وليس بالمنهج الاكاديمي، قال الله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة الحج: ٥٤].

والان وبعد هذا الانفتاح الكبير على العلوم المحضة والتكنولوجيا (Pure sciences and Technoloy)، بدأنا نرى دقة الحقائق القرآن ية في الافاق والأنفس وهو ما اشار اليه القرآن: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سورة سبأ: ٦].

التوثيق في التفسير؛ ينطلق من الافاق والأنفس، والمعرفة هنا استكشافية وليست اختراعية، نعم قد تتحول الى اختراعيه عند التحول بعد اليقين في الحقيقة المكتشفة الى اختراع تطبيقات لها تنفع الناس. وهو ما يتوافق مع معاني التفسير المفترضة.

لقد عانى النص القرآن ي كثيرا من العسف في التفسير من اعتباره نصا لغويا واتباع المنهج الاكاديمي في التفسير فأقحم فيه النحو وعلوم اللغة العربية، بينما الذي اتبعوا المنهج القرآني في التعليم والتعلم نوادر ولكنهم صاروا عباقرة زمانهم وأئمة علومهم، نضرب لذلك مثلا: الشيخ عبد القاهر الجرجاني[1] الذي اصبح اماما في البلاغة

(١) الجرجاني، عبد القاهر (٤٠٠ -٤٧١ هـ، ١٠١٠ -١٠٧٨ م). هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الموطن، وُلِدَ وتوفي في جرجان. تتلمذ على أبي الحسين بن عبد الوارث، ابن أخت أبي علي الفارسي، وكان يحكي عنه كثيرًا، لأنه لم يلق شيخًا مشهورًا في العربية غيره لعدم خروجه من جرجان في طلب العلم. ويُعد عبد القاهر واحدًا من الذين تفخر بهم الحضارة الإسلامية في مجال الدرس اللغوي والبلاغي، إذ تقف مؤلفاته شامخة حتى اليوم أمام أحدث الدراسات اللغوية، ويُعد كتابه دلائل الإعجاز قمة تلك المؤلفات؛ حيث توصل فيه إلى نظريته الشهيرة التي عُرفت باسم نظرية التعليق أو نظرية النظم، التي سبق بها عصره، ومازالت تبهر الباحثين المعاصرين، وتقف نداً قويًا لنظريات اللغويين الغربيين في العصر الحديث.

وهذه العبقرية عند الجرجاني جاءت من حبه لآل محمد صلوات الله عليهم ومعرفته بحقهم مثله كما فعلت لتصنع فطاحل الشعراء كالمتنبي والفرزق ودعبل والكميت وابونؤاس ابو العتاهية وفراس الحمداني وغيرهم كثير جدا، ومثل الجرجاني كمثل رموز العلماء من اتباع اهل البيت عليهم السلام من امثال ابن سيناء وابن النديم وجابر بن حيان والفراهيدي وابو الاسود الدؤلي وصدر الدين الشيرازي... فقد (نقل المناوي في فيض القدير: (٦/

ووضع علومها؛ وذلك لاستخدامه المنهج القرآني وليس الاكاديمي، عندما انتقل من النص القرآني باعتباره حقيقة، ليشخص قواعد اللغة وأصول بلاغتها.

المشكلة اننا لا زلنا نعاني من الببغاوات الذي يجعلون من انفسهم ائمة في منهاج التفسير وهم لا يزالون لا يفرقون بين المنهج الاكاديمي والمنهج القرآني في التفسير بل وينتقدون الذين يعتمدون التوثيق بالقرآن باعتباره ينص على الحقيقة المطلقة.

٣. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢]:

لا يستطيع الباحث ان يجد ما يفيده في القرآن إلا اذا كان مؤمنا بدرجة التقى، والإنسان لا يكون بدرجة المؤمن التقي إلا اذا نمت فيه الانسانية، فالإنسانية ميزة تنمو وتكبر في نفوس اعتقدت بالله وفوضت امرها اليه ثم استقامت.

ونحن نعتقد ان ايمان الجرجاني منحة عين ثاقبة وبصيرة نافذة، فلو رأى كما يرى اللغويون ان القرآن مجرد نص لغوي لما استطاع ان يبلغ الاسرار البلاغية المعجزة فيه، فمع وضوحها وبداهتها لم يدر بخلد احد ان ماهية القرآن في اياته ليس نصا لغويا وانه روح برزت في نص، وما التفت اليه الجرجاني بنظرية النظم بما سماه: دلال اللفظ الذي يكتسبه خلال نظمه في سياق وتركيب الاية هو الذي يسعى إليه مستخدم اللغة، حيث يجد الاعجاز البلاغي للنص القرآني وذلك لاختلاف دلالة اللفظة تبعًا للتركيب النحوي الذي تنتظم فيه، والمواضع المختلفة التي تحتلها في السياقات الناتجة عن أصل سياقي واحد للآية او الايات؛ انه السلطان في النص القرآني الذي انتبه له الجرجاني دون غيره:

٣٦٦) عن كتاب الامامة للإمام عبد القاهر الجرجاني قوله: أجمع فقهاء الحجاز والعراق من فريقي الحديث والرأي، منهم: مالك والشافعي وأبو حنيفة، والأوزاعي والجمهور الأعظم من المتكلمين والمسلمين أن عليا مصيب في قتاله لأهل صفين كما هو مصيب في أهل الجمل، وأن الذين قاتلوه ظالمون له)) (انظر: رجال الشيعة في أسانيد السنة -محمد جعفر الطبسي -(ج ١/ ص١٤٤)).

٤. السلطان[٢] في النص القرآني:

هناك حقيقة كونية يعلن عنها القرآن الكريم وهي ان لا شيء يمكن ان يكون بدون سلطان الله وقدرته وقوته فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، ولا شيء يمكن ان يكون دون ارادة الله تعالى يكونه؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة يس: ٨٢].

بمعنى ان كل كائن له قدر من ارادة الله وسلطانه، وإنما كان بقدر الله وسلطانه و لا يمكن ان يكون على الارض او في الكون شيء خارج سلطان الله تعالى ومن دون ارادته جل وعلا.

وبهذا يتطابق العلم تطابقا تاما مع القرآن في موضوع التلازم الذاتي بين القوة وفعلها او بين الكائن والقوة التي انجزته.

فهناك حقيقة فيزيائية مبدئية نعلمها لطلبة الصفوف الثانوية هي: ان لا يمكن انجاز فعل بدون قوة.

والمستقصي باستقراء منطقي كامل لجميع الافعال الكونية والكائنات يجد ان كل القوى الكونية من صفات الرحمة، ومن البديهي: لو ان القوى الكونية تميزت بالتنافر والقسوة لما كان هناك كون ولا كائنات على الاطلاق.

ويمكن ان نلخص هذا الاستقراء المنطقي للقوى الكونية وأفعالها في الجدول الذي سيأتي بيانه:

واستنادا للحقائق العلمية البديهية المؤشرة والملخصة علمنا:

أ. كل كائن؛ هو ظاهر لباطن قوة انجزته.

ب. صفة كل القوى الكونية هي الرحمة فقط.

ج. للقوى الكونية طبيعة واحدة ومن سنخ واحد.

د. حياة تلك القوة التي تقوم بها الموجودات تتجسد في إثبات العجز في الكائن الموجود: (اثبات العجز مرة كما في المادة (القصور الذاتي)، وبرفعه مرة أخرى كما في الحياة، ثم بإثباته في الحياة (القصور الحيوي الذاتي) ورفعه في العقل كما في الانسان، ثم بإثباته في

(٢) لدينا بحث مفصل في معاني السلطان في القران الكريم.

العقل (القصـور العقلي الذاتي)، ثم برفعه عن العقل في الانسان المختار بقوة الوحي ليعتصم، وليكون النبي ذا عقل مرفوع عنه كل القصورات وفق حركة كونية نسقية نمطية صاعدة باتجاه الكمال وبأمر واحد)[٣].

فاذا استحال تعدد امر كينونة الاشياء، استحـال شريك الخالق او المكون او الصانع.

واذا كان الحق واحد لا يتعدد ولا يتبدد متجسـدا وبشكل بديهي بنظم الوجود والموجودات ومنصوصا بالقرآن: اذن؛ فكل الكائنات افعال لقوة واحدة، ولا يوجد غيرها في الكون فلا وجه لشريك اخر في التكوين. ويمكننا ملاحظة ذلك بديهيا في:

أ. وحدة السنن الكونية النافذة في الكون.

ب. ووحدة الأنماط التي تجسد الكون.

ج. ووحـدة الثوابت والنسب الكونية ووحدة قيامها وحياتها.

(٣) حقيقة بديهية من الواقع من الانفس والافاق.

بديهيـا اذن؛ لا وجه مطلقا لوجود شريك خالق خارج تلك الوحدة؟.

ان نتاج تلك القدرة الحكيمة المبدعة مقدرة بـ(السلطان)؛ هو انماط الكون الستة، مصاديقها؛ كائنات وظواهر، وهو يحصل بنسق واحد، نقول عنه النسق الكوني والكل يدرك ببداهة ان وحدانية المبدع تتحقق بالخصائص التالية:

- **أولا**: الحركـة النمطية التي تميز الموجودات الكائنة جميعا، قبضا وبسطا، والتي تتحقق في كل مفردة من مفردات الكون: ((الفعل الذي لا ينجز الا بسلطان))، وكل جزء من أجزائه.
- **ثانيا**: الحركة النمطية الكونية الصاعدة في البسط ابتداءا من قبض، سريانا باتجاه قبض آخر؛ هو في الواقع بداية لبسط نمط أكثر اقترابا من الكمال اشارة لى سلطان الله تعالى المتفرد في الكون.
- **ثالثا**: القصـور الذاتي في الأجزاء، والترابط والتكامل بين جميع الأجزاء الوجودية، في سعيها لإنجاز الكون

الواحد (الفعل المتفرد بالسلطان الواحد).

- **رابعا**: كون جزء مختار من موجدات النمط السابق؛ كلبنات لبناء موجودات النمط اللاحق. تعبيرا عن وحدة السلطان المانح للهوية التكوينية للكائنات.
- **خامسا**: الرفع التدريجي للقصور في الموجودات الكائنة المبسوطJJة (الظاهرة)، تطورا باتجاه الكمال، من الطاقة حتى العقل. مجسدات اقدار الامر الجليل (كن)؛ طبقا لقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾[سورة الاحزاب: ٣٨]؛ للتكثر الكائنات كل بقدرها من الامر الجليل (كن) المعبر عن سلطان الله تعالى.
- **سادسا**: سريان متسق دائب دائم لا يتوقف بدءً من التجرد، وعودا إلى التجرد في نمط كبير. بمعنى ابتداء الخلق بأمر(كن) بسلطان الله وسعيه اليه واكتماله عنده، فلا شيء خارج عن سلطانه جل وعلا. إن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾؟. [سورة يونس: ٣٢].

فغاية كل علم هو بلوغ حقائقه، أي الإحاطة بثوابت الصدق من واقع وجوده؛ وهي جزئيات الحق الذي تبقى الإحاطة به بعيدة المنال، حيث لا يوجد سبيل علمي إلى الله تعالى من خلال أنماط التعلم في التكوين النفسي للإنسان، كالتسليم والتعليل والتصديق والتفاضل والتكامل والتعميم والتجريب والإيمان بالغيب.

بل السبيل إلى معرفة الله تعالى تبدأ من نفس الإنسان وقلبه ومن افاق واقعه وكونه، أي عكس معرفة الأشياء، حيث تبدأ في خارج النفس ومحيطها، ثم بعد المعرفة تصير حقائق تنطوي عليها النفس في داخلها.

ونحن نجد في كل نفس فينا ان السلطان هويتنا التكوينية الفاعلة: انه السلطان في صنع مادة الجسد، وهو السلطان في تلقائية الحياة، وهو السلطان في حرية الخيار للفعل الذي يمنحه العقل، وهو محض الرحمة المرسلة في الانبياء

والمعصومين عليهم السلام مانحي الرحمة وناشري النور ومعلمي العلم وقواعد الفضائل والقيم الانسانية الراقية.

فالسلطان: هو الهوية التكوينية الظاهرة للقوة الرحيمة الفاعلة البارئة للكائنات والمقدرة فيها ولها، والتي تشير الى الله تعالى دوما، كما هي لفظة سلطان في القرآن، تأتي دوما مقرونة بالله تعالى حيث ما وردت في القرآن الكريم.

٥. عندما يتحقق للنفس البشرية سلطانها القرآني النامي:

لو تحقق في النفس الانسانية للقران سلطانه النامي، لكان لها هدى ونور و شفاء ورحمة.. وبالعكس فان سلطان القرآن اذا سلب من النفوس بالكفر له مفعول معاكس في النفوس الكافرة به.. قال تعالى:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[سورة الاسراء: ٨٢].

وهذه مفارقة عجيبة الحدوث فهي ظاهرة كونية لا يلتفت اليها الا من له نصيب من سلطان القرآن في نفسه، ولأن الدين هو الفطرة او التكوين كما يقول الله تعالى:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[سورة الروم: ٣٠].

فهذا يعني ان الاستماع للقران؛ يداخل سلطانه في النفوس اذ السلطان هو الهوية التكوينية كما مرّ معنا.. واليه يشير الله تعالى في قوله الكريم:

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ٢٠٤].

وللتركيز على تلك الهوية واستحكام النية باتجاه سلطان الله تعالى امر الله تعالى بالاستعاذة من الشيطان الرجيم، حيث له سلطان على عباد الله؛ قال الله تعالى:

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[سورة النحل: ٩٨].

وكل مؤمن يحيى صالحات الاعمال، يستشعر مواقع الاثر من نفسه حين يقرأ القرآن ويشعر بمساقط التأثير من نفسه حين يتدبر القرآن، فيجد البشرى

والتبشير، ويسره نور الهداية ويتلمس الصواب ويأمل الثواب مثلما يغتم للتقصير والقصور الذي يبدر منه وهذا ما لا يجده غيره في القرآن. قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [سورة الاسراء: ٩].

كما يؤكد المولى جل وعلا في الآيات التالية انعدام توفيق الله للإفادة من القرآن وسلطان آياته في نفوس الذين لا يؤمنون بالله واليوم الاخر:

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [سورة الاسراء: ٤٥-٤٦].

٦. بناء الحجم النامي (السلطان) في النفس الانسانية:

ان من اهم الدلالات البينات على ان الآيات القرآن ية قول الله تعالى؛ هو ان هناك فرق بيّن ظاهر بين أي نص من خارج القرآن، وبين النصوص القرآن ية، ذلك لأن الآية من آي كتاب الله تعالى ذات حجم متكون من ثلاث أبعاد، هي:

اولا: البعد المعرفي الموضوعي:

المعرفة في موضوعها التي تقدمها الآية للإنسان وهي؛ نص البيان المكتوب في ثماني موضوعات جمعت كل شيء فصار القرآن تبينا لكل شيء: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[سورة النحل: ٨٩].

المقادير تجري في الكون والكائنات وفق ثمان وجودات مهيمنة مستطيلة نافذة حاكمة في كل شيء، وهيمنتها ونفاذيتها وحاكميتها بديهية لدرجة تصبح كالنفس الذي نتنفسه، هذه الوجودات المستطيلة على الكون والكائنات هي:

اولا: القوة الموجبة الرحيمة وهي السلطان الذي انزله الله في الموجودات التي لا يمكن ان ينجز أي فعل كوني بدونها على الاطلاق، وقد افردنا جدولا بتالي البحث يبين بالتفصيل عموم الافعال الكونية المنجزة بتلك القوة وهي كل شيء.

ثانيا: الطاعة؛ وهي الاستجابة البديهية

للموجود لنظام وجوده.

ثالثا: الحق؛ وهي مواقع الصدق والثبات البديهيين في النظام القائم في الموجود وفي الوجود كله.

رابعا: الزمان والمكان وجودان بديهيان نافذان متحكمان بالموجودات والوجد كله من خلال السريان الاجباري الذي نعيشه والذي نلحظه من خلال التغير في الحيز محسوبا في الزمن.

خامسا: الامامة وهي معنى الحسن البديهي في وجود الكائن الذي لا معنى لوجوده بدونها.

سادسا: البلاء: التعارض الحتمي لحركة الموجودات وفق نفوذية او حاكمية الوجودات المستطيلة.

سابعا: الموت: حتم بديهي يترتب على نهاية الاجل لكل كائن موجود.

ثامنا: مربوبية بدهية للكائنات كلها لوحدة الانماط الخلقية ولوحدة السنن الكونية ولوحدة الثوابت الكونية، بما يعني واحدانية وصمدية الخالق الباريء المصور.

ولذا فان التبيان لكل شيء الذي تتحدث عنه الاية: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[سورة النحل: ٨٩].

هو بيانات حاكمية السنن الكونية او استطالتها او سلطانها: هي كما يلي:

أ. البيان القدسي؛ وهو الوحي (امر من روح الله) القوة او السلطان الذي يختص بالله تعالى وأسمائه الحسنى، وما يتعلق بذاته وصفاته، فآيات البيان القدسي؛ تتحدث عن الله تعالى في إرادته وصفاته الحسنى وقدسه وعلاقته بخلقه ومخلوقاته.

ب. البيان التشريعي؛ وهو الوحي الذي يتبنى صلاح الخلق والمخلوقات، وهو السلطان الذي يتقوم به الفعل، فيحدد الحدود و يقيم الأحكام في الحلال والحرام، والواجب في الفعل أو الواجب في منعه. فهو البيان الذي؛ يتحدث عن أحكام الله وشرعته في عباده؛ ما يريد وما لا يريد من العبد، وما اوجب عليه وما حرم وما بين ذلك.

ج. البيان العلمي؛ وهو الوحي الذي

يفسر الظواهر الطبيعيـــة أو الحياتية أو العقلية، أو يوعز لدراسة ظواهر كونية معينة بأوامر مباشرة، أو يتساءل عنها أو يقسم بها. فهو البيان الذي يتحدث عـن حقائق الخلق وعلله ووضـوح سلطان الله فيه، ونواميس الكون وسننه. ليمكن الانسان من بناء عقيدته الراسخة بربه من خلال كتاب الله تعالى الذي يمنحه الثقة العالية بربه ونفسه.

د. البيان الغيبي، هـو الـوحـي الـذي يتكلم عن الحياة الأخـرى، يصف القيامة وأوقاتها و أحوالها، ويتحدث عن الجنة والنار وأهلهما وما يجري فيهما... بيـان؛ يتحدث عـن العالم الآخر والعوالم الأخرى في الكون. وهـو بـذات النهج والغاية يعرف بسلطان الله في خلقه الغائب كما في خلقه الشاهد، ليبني الانسان وفقا لنسق الكون الذي هو بالواقع ترجمة لمشيئة الله تعالى.

ه. البيـــان التاريخي، هو الوحي الذي يسرد الوقائـع التي جرت في قصص الصالحين والطالحين، مقرونة بالعبرة وببيان السنن الكونيـــة التي تجسد سلطان الله وهيمنته في الوجـود، انه بيان؛ يتحدث عن حـوادث سالفة ضمن سنن الله في خلقه، كونا وتكوينا وما بينهما للاعتبار بها.

و. بيـان فيض اللطف والـرحمة، يبرز هذا البيان في الغالب من الايات في تعقيبـات الـوحي عـلى الحـادثات والعوادي، ويبين كيف تجري المقادير وفق سلطان الله المستطيل المتجسد في علة واحدة هي الرحمة؟!. وكيف تتغير المقادير لهذه العلة الأم؟!.

انه بيـان فيض رحمة الله تعالى التي كتبها عـلى نفسه ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[سورة الانعام: ١٢]، التي وسعت كل شيء، وكانت فوق كل سبب، فهي أم العلل في كل هذا الكون نواميسه وظواهره.

ز. بيان الأمـامة؛ بيانـات الوحي عن حقيقة الخلافـــة الجعل (الإمامة)، باعتبارها معنى الكمال في كل انماط الخلق وفي كل خلق؛ فالامـامة ميزة

الحسن البدهية في كل كائن لا معنى لوجوده بدونها على الاطلاق، سواء في ذاته اومن صنفه.

فبيان الامامة؛ بيان السلطان المعياري؛ الذي يتحدث عن ضوابط ومعايير في الوجود، ومعايير في المعاني؛ كالحب والعلم والحق والحسن والقبح.

ح. بيان النسق الكوني؛ المتجسد في هذا السريان البديهي الكبير للكون والكائنات والواضح من خلال تحكم ونفاذ الزمان والمكان كسلطان حتمي لايفلت منه احد، وهو في القرآن حديث الوحي في السنن الكونية، وفي بناء المعرفة الصحيحة، واستخلاص الأحكام الحق في المعرفة.. فهو بيان تشخيصي؛ يتحدث عن وسائل الخالق العظيم في إبراز حسنه وكماله وتجلي إبداعه في خلقه.

وقد تجد مختصات من الآي في هذه البيانات، أو قد تجد أن آية واحدة تشتمل على كل هذه البيانات، او كثير منها.

ان مجرد التعرف على هذه البيانات القرآن ية من قبل المرء يمثل البعد الاول في بناء سلطان الاي الكريم في النفوس، والذي بدوره يؤسس لحجم نام في النفوس البشرية.

ثانيا: البعد الروحي:

نقصد بالبعد الروحي؛ عمق الوعي بالبيان القرآني من النفس، ومقدار استيعاب النفس لمعاني البعد الموضوعي.. فكل آية لها عمق في النفس، وامتداد عمقه في ذاتها، وإذا كان الناس يتساوون في البعد الموضوعي بمقدار ما يتلقون من معارف؛ فإنهم يتفاوتون في وعي المعارف القرآنية.

فعلى سبيل المثال لا الحصر: النص؛ (لا اله إلا الله)، التي نعرفه جميعا ونشهد به ونصدع به في الاذان... نجد في الواقع اننا لا نعيه كما يعيه الرسول ﷺ، أو الإمام علي عليه السلام قطعا.

فتلك الشهادة لها عمق اكبر في نفس الرسول والإمام صلوات الله عليهم وآلهم. وهكذا كل المفردات ألأخرى لها اعماق متفاوتة بين البشر في الروح هو الوعي.

فعن الامام زين العابدين عليه السلام يقول:

(كتاب الله عز وجل على أربعة أشياء: على العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق. فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء)[٤].

وعن الإمام الباقر عليه السلام يقول:

(إن للقرآن بطنا، وللبطن بطن، وله ظهر، وللظهر ظهر،... وليس شئ أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن، إن الآية لتكون أولها في شئ وآخرها في شئ، وهو كلام متصل يتصرف على وجوه)[٥].

وعن الإمام علي عليه السلام: (القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق)[٦].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: (القرآن كله تقريع، وباطنه تقريب)[٧].

وعليه فعلى اساس من البعدين الموضوعي والروحي تتشكل مساحة السلطان القرآني في النفس الانسانية لآيات الله في كتابه.

ثالثا: البعد الزمني:

وهو ما يترتب من استيفاء الزمن لتستحيل المساحة السلطانية لأي أية في النفس إلى حجم واقع من ثلاث أبعاد ، فالآية التي تأمر بواجب مثلا؛ هي معلومة في بعدها الموضوعي يتضمنها نص لغوي لا غير، فإذا كان لها حظ من الوعي في نفس ادمي (أي لها عمق معنوي في النفس)؛ تستحيل الى مجرد مساحة في النفس لا حيز لها؛ إذا لم تقترن بالزمن، حيث تركب النفس الزمن كمطية لتحقيق الأمر الذي تتطلبه الآية.

بمعنى ان استثمار الزمن في استحالة الايات الى واقع ميداني عملي هو الذي يبني حجم السلطان للآية القرآن ية في النفس الانسانية العاملة. ولذا فلا اعتبار للعلم بلا عمل:

جاء عن الإمام علي عليه السلام: قال رجل: يا رسول الله!. ما ينفي عني حجة الجهل؟. قال: العلم، قال: فما ينفي عني حجة العلم؟. قال: العمل[٨].

وأيضا عنه عليه السلام: وإن العالم العامل بغير

(٤) بحار الانوار للمجلسي: ٩٢/ ٢٠/ ١٨.
(٥) بحار الانوار للمجلسي: ٩٢/ ٩٥/ ٤٨.
(٦) نهج البلاغة: الخطبة ١٨.
(٧) معاني الأخبار للصدوق: ٢٣٢/ ١.
(٨) كنز العمال: ٢٩٣٦١.

علمه كالجاهل الحائر [الجائر] الذي لا يستفيق من جهله، بل الحجة عليه أعظم، والحسرة له ألزم، وهو عند الله ألوم[٩].

وكذلك عنه عليه السلام: علم بلا عمل حجة لله على العبد[١٠].

و عنه عليه السلام: الدنيا كلها جهل إلا مواضع العلم، والعلم كله حجة إلا ما عمل به[١١].

ونحن نعرف ذلك من الحالة المثالية للراسخ في العلم، حيث تبدأ عنده بمعرفة مواضيع الآي الكريم كلها، ثم وعيها بكامل بعدها، باستيعاب ترجمة المعصوم لها، ثم استعمال كل لحظة من لحظات عمره وزمن وجوده في تكريس معاني تلك الآيات من بياناتها.

أي ان الشخص الذي يمتلك حجما ناميا لسلطان الايات في نفسه، يحمل القرآن في وجوده، فالمتشابه عنده كالمحكم كل حق من عند الحق، فالخطل والصفاقة وكل ما لا ينفع في بناء العقل؛ انما يأتي من الزيغ والقبح وإتباع الهوى.

ومن ثمرات وجود سلطان نام للقران في النفس؛ هو ان السوء الذي يأتي به القصد المسبق في الفتنة لا حيز له في حجم يتسع ليشمل كل النفس.

فإن نفسا نمت وشبّت بأبعاد الآي القرآني العظيم، تصير حساسة رقيقة شفافة لما هو قبيح ولما هو حسن، بالإضافة إلى تجهزها بمواد البيان المعياري الضابط في كل وجه؛ فتصير بذلك نفسا يحكمها القرآن، وخلقها القرآن، وسبيلها القرآن، وحجتها القرآن، وحملها القرآن.. تلك هي نفوس الراسخين في العلم؛ المعصومين عليهم السلام.

٧. ضوابط صحة التوثيق في تفسير القرآن:

لمنع التاطير لمعاني النص القرآن ي باعتبار التاطير ممنوع ومحرم شرعا، ولمنع الشطط والتخليط وعدم الانصاف في التفسير ولمنع الخطأ، لابد من الضوابط التالية:

الضابط الاول في التوثيق: استخدام المنهج القرآني في التوثيق وليس المنهج

(٩) نهج البلاغة: الخطبة ١١٠.
(١٠) غرر الحكم: ٦٢٩٦.
(١١) البحار: ٢/ ٢٩/ ٩.

الاكاديمي. اي البدء بالنص القـــرآني كحقيقة الى اثارهـــا في الافاق والأنفس، ولا يصح التعـــامل مع النص على انه موضع مبهم نحتاج لبيان حقيقته كما في المنهج الأكاديمي فمجرد الاعتبار بحقيقة النص القرآني كاف ليكون الانسان على المنهج العلمي الصادق الصحيح.

الضابط الثـــاني في التوثيق: التعامل مع النص القرآني على انه روح وليس نصا لغويا. لان اعتبار النص القرآني نص لغوي ادى الى عسف في التفسير وإقحام لقواعد اللغة فيما يشوه المعنى، وان عدم احاطة بعض اللغويين بكامل علوم اللغة ادى الى اقحام علوم اللغة في النص القرآني لإظهار الخلل في النص القرآني. في حين ان النص القرآني كائن يتميز بمميزات الحياة وله ابعاد الوجود الاربعة كاملة كما فصلناه في هذا البحث فلابد من الاعتبار بذلك حين التوثيق.

الضابط الثالث في التوثيـــق: يصح التوثيق بالقرآن وله، ولا يصح التوثيق عليه لان النص القرآني هو الحقيقة، وهو المرجـــع. فيصح تفسير القرآن بالقرآن وهو افضل الضوابط والسبل المنصفة في التفسير.

الضابط الرابـــع في التوثيق: يصح التوثيق بكلام المعصوم الثابتة صحته، ولا يصح التوثيق عن فلان وعلان ممن لا عصمـــة له من امثال حسن ومجاهد ومقاتل.... الخ. لان التوثيق بالخطّآء غير مضمون الصحة، وهو سبب كل التخليط والفوضى في التفاسير الموجودة.

الـضـابـط الخـامـس في الـتـوثـيـق: يصح التوثيق بالسنن الكونية البديهية وباستحالتها في انماط الكائنات؛ باعتبارها قوائم العرش، ومخلوقات الله الحاكمة النافذة المستطيلة المهيمنة في الكائنـــات وهي بديهية الصياغة وعلى الشكل التالي:

أ. سنة القوى الرحيمة منجزة الكائنات والكـون، فالكون والموجودات الكائنة كلها منجزة بقوة الرحمة وباقية ومستمرة معها وبها.. قال تعالى: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ

فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٢].

ب. سنة الطاعة، فالكون والموجودات الكائنة كلها في حال طاعة لان الطاعة هي استجابة الكائن لنظام كونه.. قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾[سورة الإسراء: ٤٤].

ج. سنة البلاء: كل كائن مبتلي ومبتلى به في كل ان.. قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾[سورة هود: ٧].

د. سنة قيمومة الحق والعدل، فلا بقاء ولا وجود ولا استمرار للكون والكائنات بدون الحق.. قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴾[سورة الحجر: ٨٥].

ه. سنة الوحدانية، تتجسد في وحدة الثوابت الكونية ووحدة السنن ووحدة الانماط ووحدة النسق الكوني للفعل الذي يبدأ بعلة واحدة ويسري لغاية واحدة.. قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴾ [سورة الرعد: ١٦].

و. سنة سريان الزمكان، كل الكائنات في حال سريان يبدء بعلة واحدة ويجري الى غاية واحدة.. قال الله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴾ [سورة الزمر: ٥].

ز. سنة الامامة، هي ميزة الكمال في خلق الكائنات والتي بدونها لا معنى لخلق

الكون والكائنات.. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [سورة الاسراء: ٧١]. وقال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[سورة القصص: ٥].

ح. سنة الموت. حتم لا يفلت كائن منه. قال الله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[سورة الأنبياء: ٣٥].

تلك هي ثماني سنن كونية بديهية حاكمة نافذة في الوجود، مستطيلة مهيمنة في الكائنات لا يفلت منها احد.. يصح التوثيق بها للتفسير لبداهتها ولتحققها في الكون والكائنات. فليس النسق الكوني لخيارات الافعال الكونية إلا تناسق الانماط الكونية مع السنن الكونية.

وعلى اساس من هذا وجدنا ثماني بيانات قرآنية، باعتبار القرآن (تبيانا لكل شيء)، ولا سبيل للإحاطة والاستطالة في البيان الا من خلال السنن الكونية الثمانية المستطيلة.

فلا يصح التوثيق بغير تلك السنن في البيان. ووفق هذا الضابط لصحة التوثيق سوف تمّحي اثار العسف في التفسير في كثير من مواضعه.

الضابط السادس في التوثيق: عن الامام زين العابدين عليه السلام يقول: (كتاب الله عز وجل على أربعة أشياء: على العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق. فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء)[١٢].

وعن الإمام الباقر عليه السلام يقول:

(إن للقرآن بطنا، وللبطن بطن، وله ظهر، وللظهر ظهر،... وليس شئ أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن، إن الآية لتكون أولها في شئ وآخرها في شئ، وهو كلام متصل يتصرف على وجوه)[١٣].

وعن الإمام علي عليه السلام: (القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق)[١٤].

(١٢) بحار الانوار للمجلسي: ٩٢/ ٢٠/ ١٨.
(١٣) بحار الانوار للمجلسي: ٩٢/ ٩٥/ ٤٨.
(١٤) نهج البلاغة: الخطبة ١٨.

وعن الإمـــام الصادق عليه السلام: (القرآن كله تقريع، وباطنه تقريب)[١٥].

امـــام هـــذه الاحـــاديـــث مـــن لـــدن المعصوم؛ يجب ان يتسلح المفسر بالشعور بالعجز امام التفسير، فلا يظن انه نهاية المطـاف، فـان كـان من الـعـوام؛ تفوته الاشـارة واللطائف والحقائق وان كان من الخواص فاتته اللطائـف والحقائق،.. وهكذا.

بمعنى لابد من استشعار العجز من الاحاطـــة بالنص عند التفسير كضابط صحة، فعند العجز لابد من اتهام النفس به وليس النص.

الضابط السابـع في التوثيق: قال الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[سورة الروم: ٣٠].

لابد من الاعتبار بالضوابط الفطرية الكونيـة في تحديد معنى اللفظ القرآني ضمن سياقـــات الابعاد الثلاثة للآية او النص القرآني؛ وهي: البعـد الموضوعي، والبعد الروحي، والبعد الزمني.

بمعنى ان التفسير؛ هو مسعى لإثراء النص القرآني، مع استشعار العجز ازاءه بحقائق الحال، بما يعني بقاء المعنى القرآني يتجدد في التفسير مع الزمن كبعد ثالث في قيام المعنى، فالوحي روح من امر الله تعالى، فهو حي نام، فلا يمكن لاي قالب ان يؤطر القرآن العظيم.

ان النص القرآني حي بكـــل معاني ومميزات الحياة، ونحن نلمس ذلك في تناسبه مع الزمان والمكان منذ ان نزل قبل اكثر من اربعة عشر قرنا والى ما شاء الله تعالى، بل هو يفصح عن مزيد من مكنونه كلما تقادمت عليه العصور.

وعلى هذا ولأجل هذا؛ يتحتم على من يتصدى لتفسير كلام الله تعالى ان يتسلح بالمؤهلات العاصمة من العسف والظلم، وتكون له القدرات العلمية والنفسية الرادعة من الزيغ واتباع الهوى، وله من الورع والتقى ما يستحق به من الله تعالى التسديد، فالله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [سورة النحل: ١٢٨].

(١٥) معاني الأخبار للصدوق: ٢٣٢/ ١.

فسلامة الفطرة شرط او ضابط في صحة التفسير، ولتشخيص سلامة الفطرة لنلاحظ كيف تقترن بأصول الدين كما في الجدول الاتي:

السنة الكونية	اصول الدين
الطاعة: استجابة الموجود الكائن لنظام وجوده: تولي امر المولى (المعنى الاخر لمعنى الوجود)	اصل الايمان بالولاية للامام الحق. الولاية: اصل من اصول الدين
العدل والحق: قيمومة نظام الخلق بالحق وسريانه بالعدل: (اساس قيام الوجود)	اصل الايمان بالعدل
الموت: كل مخلوق لابد ان يموت (الانتقال الى حقيقة الوجود)	اصل الايمان بالاخرة والمعاد الجسماني
الامامة: هناك ميزة كمال في كل خلق هي الامام من ذلك الخلق (معنى حسن الوجود)	اصل الايمان بالامامة والنبوة
الوحدانية: مربوبية الكائنات لله الواحد؛ وحدة الانماط ووحدة الثوابت وححدة السنن (جواهر الوجود)	اصل الايمان بالوحدانية لله تعالى
السريان: استحكام الوجود بتغير الزمان والمكان، الحركة الجوهرية للوجود (توجه الموجودات للكمال المطلق سبحانه)	اصل بدء خيارات العمل بالنية بقصد القربى الى الله تعالى (انما الاعمال بالنيات)
الرحمة: كل القوى الفاعلة في الكون هي من صفات الرحمة (علة الوجود)	الرحمة علة الوجود واصل خيار الافعال الحسنة والعكس صحيح
البلاء: تعارض حركة الانماط ونفاذ السنن: (تجلي حسن الوجود)	الصبر على البلاء (من لا صبر له لا ايمان له)

ملخص في الجدول التالي العلاقة بين السنن الكونية البديهية واصول الدين الاسلامي
(المسلمات العلمية تطابق المسلمات الدينية في الاسلام واصول الدين)

والملاحظ يرى تطابقا بين الفطرة وأصول الدين، فمن لا يؤمن بأصول الدين هذه ففطرته غير سليمة وليس من الصواب التوثيق بما يصدر عنه على القرآن.

الضابط الثامن في التوثيق:

ان لا يكون المفسر من الظالمين او اتباعهم لان هناك توكيد متكرر كثيرا في القرآن في تلازم عدم الهداية مع الظالمين، فلا يستحق الظالمون عون الله تعالى وتسديده، فالله تعالى (الله لا يهدي القوم الظالمين)[١٦].

وعلى ضوء هذه الضوابط نستطيع ان نضع مؤهلات المفسر وكما يلي:

١. الايمان بمعناه الخاص:

التصدي لتعليم القرآن او بيان معانيه هي عبادة من ارقى ما يتقرب به العبد الى ربه، ولذا فقصد القربى الى الله تعالى فيها مطلوب على وجه الوجوب لقبولها، وان كان هذا العمل بذاته مستحبا، فلو شاب قصد المتصدي غاية غير الله تعالى فلن يفلح، لان الله تعالى لا يهدي كيد الخائنين، وهذا حتى ان كان المتصدي يضم الى قصد القربى الى الله تعالى قصدا اخر دون وعي منه، كما يحصل عند المستلب في عقيدته حيث يحكمه العقل الباطن او اللاوعي كما يسمونه في علم النفس.

والايمان مفهوم فضفاض، لذا لابد من تشخيص دقيق لحال المؤمن الذي يحق له تفسير القرآن وبيان معانيه.. فلو تصفحت (مثلا) كتب مشيل عفلق لوجدت انه يفرد فصولا مطولة للحديث عن الايمان، وكذلك يفعل التكفيريون الاجلاف الذين شوهوا معالم الدين، بما يعتبرون انهم الوحيدون في العالم القابضون على الايمان والكل ما عداهم كفرة لابد ان يموتوا.

وهكذا فالمسيحيون يتحدثون عن الايمان وكذا اليهود، ولكل اهل ملة ايمانهم... ذلك لان الايمان ملكة نفسية انسانية فطرية، الا انها اذا لم تقوّم بالرحمة والحق ونفاذ كامل السنن الكونية، تنحرف في مصاديقها من ابناء البشر، ومن حيث لا يعلم المنحرف يتصدى للتفسير من حيث هو مؤمن!!.

(١٦) تكررت هذه الاية عشرات المرات في الاي الكريم.

فما هو الايمان الحق من وجهة نظر علمية؟.

الايمان؛ هو أسلوب تعلمي نفسي تاتي به سنة الموت التكوينية، فالموت خلق يقترن بخلق الحياة ومعها ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سورة تبارك: ٢]. فلا احد ينكر حقيقة الموت، وعلى هذا القدر من التحقق من هذه السنة يتحتم الايمان بما بعد الموت، وبمقداره تنشأ رقابة ذاتية لكل مصداق من مصاديق النفس، تتحصل بها معارف الانسان عن عالم الغيب، وبهذه الرقابة وعلى قدرها يتقوّم سلوك الناس، بما فيه التفسير، ولذا تشير الآيات الى ان القرآن هدى للذين يؤمنون بما بعد الموت.

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٣-٤].

وعليه فلا يصقل الايمان او يغيره، الا استشعار الرحمة والحق وبقية السنن النافذة في الكون، من خلال التعلم والتطبع بطباع ائمة الحق الذي اوصى القرآن باتباعهم..

قال الله تعالى: ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة الانعام: ٩٠].

ان كل ما في الكون من موجودات في حال تغير وسريان مستمر، مما يصعب معه التمييز والتشخيص دون معالم ثابتة، اذ العلم في جوهره تشخيص، يبدأ في الانسان، بتشخيص الاسماء لمعانيها، ثم بالمعلولات لعللها، ثم بالحقائق لثوابت الصدق في واقعها، ثم بالقوانين لحقائقها، ثم بالمتناسبات لمعاييرها، ثم بالنواميس لقوانينها، وحدود التغير بحساب مقاديرها، ومن ثم السريان بثابت انماطه ونوافذ سننه.

وهكذا نلاحظ بديهيا ان العقل يتوجه تلقائيا للبحث عن مواقع ثابتة لصدق احكامه، وهو يسير في ميادين البحث عن الحق والحقيقة، حيث لا يمكن بدون تلك الثوابت ان ينطلق للتشخيص في اي موضوع، وكلما كثرت مواقعه الثابتة كان اقدر على التميز والدقة في اصابة الحق.

ان قواعد المنطق هي قواعد عقلية،

بأمل انها ثابته وصادقة يعتمد عليها العقل لاجل التسديد او تقليل احتمال الخطأ، لكن توجه العقل الى اعتماد الثوابت اعم من المنطق، فعلى سبيل المثال؛ يجد الفلكي انه من المستحيل عليه ان يشخص ويميز ويحسب في عالم الاجرام السماوية الفسيح، دون ان يتخذ مواقع ثابتة يحددها في هذا الكـون المترامي، ويعلم علماء الفلك الـراصـدون للحركة الكونية ان حتى تلك المواقع التي يعتبرونها ثابتة لا تتمتع بالثبات الفعلي، لكن لابد لهم من الاعتبار بالثبـــات للتشخيص والتمييز لاجل حسابات يقل فيها الخطأ.

بمعنى ان البحث عن الثابت الصادق (التصديق) نمط تعلمي ذاتي، ينشط من مرتكز عقلي لا يعدمه عاقل على الاطلاق. لذا نجد حتى الذين لا يؤمنون بالعصمة في علوم الشريعة لسبب معروف تاريخيا، يلجأون للتصحيح والصحاح ويعتبرون الصحاح ثوابت لصدق احكامهم، وهي في حقيقتها وبذاتها محض جدل وتغير ناتج للجـــرح والتعديل والطعن والتضعيف ولمعايير لاتعرف الثبات. ذلك لانهـــم يرون ضرورة ان تكون لهم حجة الصحة والصدق في تشخيصاتهم اذ هم يلبسون ثوب العلم والايمان. وهكذا فلا بد اذا من تعريف لمعنى الايـمان الصادق لصاحب التفسير.

ان فـــلان وفـــلان مـــن اصـحـاب الصحاح، لم يرد عن الرسول ﷺ توجيه باعتبارهما عاصمان من الضلال، ولذا فالاعتبار بهما لا يعد بالضرورة صحيح، خصوصا بالتفسير الذي يمثل التعبير عن ارادة الله تعالى في كلامه الجليل، فلينتبه اؤلي الالباب.

فالاحتجاج بصحيح فلان وصحيح فلان، يجدونه ضرورة عقلية، وهذا من المستغرب جـــدا لانه يمثل تنكر العقول لذاتها ومرتكزاتها.

فخالق الانسان الفرد برحمته وفيض لطفه، يجعل للانسان و من ذاته اماما يدله على ضرورة العصمـــة لاستيفاء مهمته الكونيـــة على سطح هذا الكوكب وهو عقله، ثم نجـــد من يسيء الظن بالخالق الرحمن الرحيـــم فيرى انه جل شانه خلق الناس وتركهـــم دون حجة صادق هو

المعصوم!!!

ومن جانب اخر؛ فالايمان ملكة نفسية تاتي بها سنة كونية تستحيل في العاقل الى سنة تكوينية، لا تصح الا مع نفاذ بقية السنن التكوينية في النفس الانسانية.

بمعنى ان الايمان بمعناه الخاص؛ هوالتسليم، او الاسلام المقوّم بهدي المعصومين الذين هدى الله تعالى.

والاسلام؛ هو الشهادة بالوحدانية لله وبالرسالة لمحمدﷺوالايمان باليوم الاخر. اما التقويم بالمعصومين فيتم من خلال معاني الامامة المقوّمة بالعدل.. والعدل ايضا سنة كونية معرّفة بعدم الظلم، والظلم واضح التشخيص، تعافه النفس وتنفر منه الاذواق.

والامامة سنة كونية تتجلى في كل خلق محددة بمعناها الحسن، فعلى سبيل المثال؛ العقل، امام خلق الانسان ولولا العقل فلا معنى لخلق الانسان مجنونا.

والامام في الناس مثله كمثل العقل في النفوس، فاذا كان الامام مكلفا من قبل الله تعالى، ضمن الناس عصمته وشرعية حجته، فكان بذلك معيارا ضابطا في صحة الايمان.

هكذا فالايمان بمعناه الخاص هو الاسلام الموزون والمعير، وباختصار هو المقوّم بالثقلين العاصمين الكتاب والعترة، وكما هي وصية الذي لاينطق عن الهوى رسول اللهﷺ:

(إني يوشك أن ادعى فأجيب وإني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله عز وجل وعترتي أهل بيتي، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني إنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما)[١٧].

وقال الرسول الأعظم أيضاﷺ:

(إنما مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق، وإنما أهل بيتي فيكم مثل باب حطة بني إسرائيل، من دخله غفر له)[١٨].

(١٧) صحيح مسلم ج٢ ص٢٣٨، وسنن الترمذي ج٢ ص، ٣٠٧، ومسند أحمد بن حنبل ج٣ ص١٤، ١٧، ٥٩، ومستدرك الصحيحين ج٣ ص١٠٩، وحلية الأولياء ج١ ص٣٥٥.

(١٨) مستدرك الصحيحين ج٢ ص٣٤٣ وفي

ولذا نرى ان الذين استهتروا بالعترة وضيعوا تقويمها، جهلوا وجهّلوا ولا زالوا يكيدون بالاسلام ويشوهون معالمه باسم الاسلام وباسم الايمان الذي يحتكرونه ولا يرون لغيرهم له منه نصيب.

ان اي كان اذا لم يعتبر في الثقلين العاصمين فليس مؤمنا بالمعنى الخاص، وتفسيره لاشك سيكون مشوبا بالشطط والعسف، نعم قد يكون مؤمنا على طريقته التي لاصلة لها بالفطرة الدين الحق.

٢. التعامل مع القرآن على انه روح من امر الله تعالى:

التعامل مع اللفظ او النص القرآني على انه كائن سلطاني بثلاث ابعاد؛ فلابد ان يكون له بعد موضوعي مستندا الى احد البيانات الثمانية التي اشرنا اليها في المبحث السابق او عدد منها.

ولابد له من بعد روحي فهو روح من امر الله تعالى: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[سورة الشورى: ٥٢]، يتجلى في تفسير المفسر من خلال عقيدته وايمانه وعيه لمعناه واحاطته بقصد الله تعالى فيه واستشعار العجز في تمام مراميه.

اما بعد اللفظ او النص الزمني، فياتي بمقدار مربوبية المفسر لله تعالى، لان البعد الزمني لايتبين على الورق انما بالفعل المجسد لمعنى النص ولذا فان المفسر في بيان هذا البعد انما يحكي عقيدته ويجسد معاني طاعته.

ولهذا الموضوع بيان سياتي ضمنا خلال الفصول التالية ان شاء الله تعالى.

٣. العلم باللغة العربية:

اللغة العربية لغة القرآن، وبها نزل، ولذا فلا بد للمفسر ان يكون ضليعا بلغة القرآن، ومع هذا فالقرآن ليس نصا لغويا فحسب، انه وحي مكتوب بالعربية؛ اي روح من امر الله تعالى خرج الينا بنص عربي مبين، فان من مميزات اللغة العربية البيان لسعتها.

ان التمكن من اللغة العربية يساعد المفسر على استيعاب ووعي النص، والانتقال من موضوعه الى عمق معناه بيسر وسهولة، ولذا فهو اقدر على النقل

ج٣ ص١٥٠. وكنز العمال ج٦ ص٢١٦. وحلية الأولياء ج٤ ص٣٠٦. والخطيب البغدادي في تاريخه ج١٢ ص١٩. والصواعق المحرقة ص٧٥.

الى المتلقي روح المعاني من الفاظها ضمن مؤتلفات وخصائص اللغـــة وسياقاتها، فلكل لغـــة طبيعة مؤتلفة متعارفة بين ابنائها، وللسياقـــات فروض يتأطر فيها المعنى، وهـذا لايدركه كل من كان غير ابناء اللغة المتبحرين فيها.

فمثلا درس المستشرقون اللغة العربية لكنهم بقوا دون اسيعاب روحها وطبيعتها وسياقاتها البلاغية المستوفية للمعنى، يقول احد المستشرقين متسائلا عن معنى الايـة: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [سورة يوسف: ٨٢]. هل نسال الشبابيك ام الابواب في القرية؟.

في حين ان العربي لايحتاج الى بيان، ان المقصود هم اهل القريـة واصحاب العير، لان حذف المضاف من طبيعة اللغة العربية.

ان للغة العربيـة صلة وثيقة بتفكير العـربي وطبـاعـه، وان تباعد الاوطـان ودخـــول الاعـاجـم في الاســلام فرض دخول دراسات الصرف والنحو والبيان والبلاغة ومباني الالفاظ ومباحثها.. لذا ليس للمفسر الا ان يحيط بتلك العلوم، بل و ينتفع كثيرا بنصوص الادب العربي كشواهد وشخوص للتثبيت المعـــاني لالفاظها، فالاطلاع على الادب العربي يثري فاكرة المفسر ويغنيها.

٤. القدرة على الاستنباط:

ان تكون للمفسر القدرة على استنباط الحكـــم الشرعي من النص، بمعنى انه يكون متمرســا في استعمال الاصول العاصمة من منهاهجهـــا المعروفة في اوساط العلماء والتي اقرها المجتهدون وتعاهدوها بالتشذيب والتجديد كلما طرأ عليها جديد.

وهـي في واقـعـهـا نـصـوص الـقـرآن والسنة المعصومة الصحيحة، ومرتكزات العقل واصول المنطق وبديهيات مسلّمة اولية متعارفة، وهناك اجتهادات تؤلف بين تلك الاصول وتربط بينها.

ان التزام هـذه الاصـول هو عاصم من دخول العسف الى التفسير، فلا يجوز التغافـل او الغفلة عن الاعتبار بالاصول العاصمة في التفسير وليس من الدقـة في اصابة الحق اطلاق العنان للراي والفكر

لمجرد ان المفسر ضليع بعلم ما.

٥. الاعتبار بالنص المعصوم الصحيح:

والنص المعصـــوم، هو غير السنة، لان في السنـة مذاهب، وللسيرة عيون وشجـون وتصحيحـــات، وللحديث مـــدارس وتـصـحـيـحـات ومصححين ووضاعين كذابين واعراف ومعايير كلها موضعة. الا ان السنة المعصومـــة هي ما صـــدر عن النبيﷺ والمعصومينعليهم السلام بما يطابق القرآن ويتناسب مع صدقه. فذلك ما يمكن للمفسر الاعتبـــار به والاعتماد عليه في بيانه وتفسيره.

لانهمعليهم السلام وجهّوا الى ضرورة اعتبـــار القرآن مرجعا لما روي عنهـــم: (فما كان مطابقا للقران فخذوا به وما كان معرضا للقران فاضربوا به عرض الجدار).

هكذا اذا هي المقايسة في التفسير عند استخدام السيرة او الحديث الشريف او التقريرات النبوية.

ان سنـــة المعصوم الصحيحة تعتبر ترجمة لمعاني الوحي، تعين المفسر على ضبط مساقط روح الوحي من النفس الانسانية عند التوجه لتفسيرها.

لذا فالاحاطة بالسنة الصحيحـــة ضرورة بالغة للمفسر مقوّمة لتفسيره لانها الشق الثاني للثقلين العاصمين اللذين يتقوّم احدهما بالاخر كما اشار النبيﷺ في حديث الثقلين الذي مر ذكره وتوثيقه.

ونكرر؛ اما فلان وفلان من اصحاب الصحاح، فلم يرد عن الرسولﷺ توجيه باعتبارهما عاصمين من الضلال، ولذا فالاعتبار بهما لا يعد بالضرورة صحيح، خصوصـــا بالتفسير الذي يمثل التعبير عن ارادة الله تعالى في قوله، فلينتبه اؤلي الالباب.

فـمـجـرد عـدم الاعـتـبـار بـوصـايـا النبيﷺ، والاعتبار بغيرها هو شطط وعـسـف، فـكـيـف سـيـكـون المـضي به والاعتماد عليه؟!.

انـه عـلى اقـل تـقـديـر سـيـكـون غير مضمون الصدق ومحتمل الزلل.

٦. تفسير القرآن بالقرآن:

من العواصم في التفسير هو استخدام القرآن في تفسير القرآن ذاته، من خلال لفظ مفتاح.

واللفظ المفتـــاح؛ هو لفظ ورد اكثر

من مرة في ايات متفرقة، ياتي معناه في احدها واضحا او مفسرا من السياق، او مفسرا بفعل عبادي مشهور، او حكم شرعي شائع، او سنة معصومة يتعاهدها المسلمون...

وهذا اللفظ المفتاح ليس بالضرورة ان يكون له ذات المعنى، لكنه يعين كثيرا جدا في فهم النص وتفسيره.

٧. استشعار العجز في الاحاطة بالمعنى القرآني:

لان القرآن كائن حي باعتباره روح من امر الله تعالى، وفيض دائم لرحمته جل وعلا، فانه يصلح لكل زمان ومكان، ثم ان فيه اشارات وعبارات ولطائف وحقائق، ولكل صنف من الناس وعلى مر الدهور والعصور، لهم فيه درجة من الوعي، لذا فعلى المفسر ان لا يعتبر ما فسره من القرآن نهائي ومطلق وجازم، بل لابد ان يتيقن من ان ما جاء به هو وجه او وجوه، او ان الاحاطة بمعنى القرآن غير ما جاء به، ولذا نجد ان الصالحين بعد ما يفسرون ويستفيضون يعقبون: (ان الله اعلم.. او والله تعالى اعلم).

وجدير بالذكر ان لهذا الضابط ذوق جمالي رفيع، بالاضافة الى مدلوله العاصم، ويمكن للمفسر ان يضفي هذا الجمال على تفسيره، وحسب قدرته على البيان، ليجعل المتلقي ينجذب مبهورا مسرورا لمعاني الاعجاز القرآني.

٨. الاطلاع على المذاهب التفسيرية والتفاسير المنشورة للقران:

لابد للمفسر من ان يبدا قبل شروعه بالتفسير والتعامل مع النصوص القرآنية، ان يطلع على مذاهب المسلمين الذين سبقوه في التفسير وتفاسيرهم، متسلحا بالضوابط العاصمة التي اشرنا اليها، مشيرا الى العسف وسببه في مواضعه حيث وجد ومستفيدا من العبارات والاشارات والبيان الذي يوردها المفسرون موثقة لاصحابها كل في مورده.

انه اذا فعل ذلك وان كان ذلك العمل مجهدا، فانه يثري النص بمدلولات المعاني التي تغيب عن البال ويشذب المعنى ويرد الالفاظ الى اسائها السلطانية، ويحذر المتلقين من مواقع وموضع العسف في النص القرآني.

وهذا بالواقع تصحيح لعقائد الناس بالقرآن بعد احقاب وقرون فيكون بذلك فعل يستحق الرجاء بالثواب والرضا.

هناك محاولات رائعة للتفسير المقارن، ولكنهـا دون معايير وضوابط عاصمة، ولذا بقيت مختصرة على نقل نصوص من التفاسير وصفهـا او رصفها الى بعضها البعض.

٩. الاحاطة بعلوم القرآن:

لابـد للمفسر من ان يدرس علوم القرآن، وما لحق به من شبهات احاطت به، ولابد ان يطلع على ردود المتكلمين والعلماء عليها، ويدرس تاريخ القرآن، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، و الانـزال والتنزيل، الخـاص والـعام، والظاهر والباطن، والمكي والمدني، ويطلع على المدارس القرآن ية، وقراءات القرآن، واسـباب الـنـزول، التسلسل الزمني و التاريخي لنزول الايات والسور...

ان هذه الدراسـات ضرورية ليس لبلوغ الصـدق لذات المعنى للنص او اللفظ القرآني فحسب، بل للتحقيـق في معـاني القرآن لحال تطابقه مع الوجه المفترض او السياق الذي جاء به، فبعض المعاني لاتكون مقبولة لالفاظها الا ضمن حيثيات الزمان والمكان والسبب.

ولهـذا فعلوم الـقـرآن تعطي المفسر حيثيات المعنى وترفع الاشتباه والعسف في كثير من الاحيان.

١٠. المنهـج التفسيري معاكس للمنهج التعلمي و التعليمي:

تعود العلماء في تعلمهم وتعليمهم ان يبداوا بالاشياء ليبلغوا حقائقها، ضمن انماط تعلمية وتعليمية فطرية؛ فانما يتعلم الانسان ليبلغ الحق والحقائق، وانما يتولى العالم التعليم ليوصل الناس الى الحقائق والحق.

وهـذا المنهج وان كـان فطريا فانه لايصح مـع القرآن، فالقرآن بذاته هو الحق والتفسير له مهمة هي البيان، لانما المفسر انما يبدا بالحق، والمفسر هو الذي يـدل على مواقع الحـق واثـاره في واقع الكون والناس والوجود من قول الحق جل وعلا الذي بين يديه.

اي اننا في القرآن نبدا بالحق، وليس كما في بقية العلوم، حيث تنتهي بالحق.

ان الاعتبار بهذا المنهج يقوّم المفسر، فلا يكون فوقيا دون ان يعلم وهذا المبدا يسهل على المفسر بلوغ المعنى وتبليغه.

وان كان لابد من التعليم في القرآن فانما هو البيان.

١١. الصحة من سقم الفضلاء:

يُبتلي الفضـــلاء دوما بالاستلاب ببلاء ابليس لعنه الله، وهو الفوقية. فقد يقع الآدمي تحت تأثير الشعور بالفوقية عندما يتوهم أن حجم عقيدته في نفسه هي أكبر مما عليه في حقيقتها في سلم الكمال العقائدي، وهذا الشعور قد يدفع بهذا الآدمي إلى استلاب مواقع متقدمة في العقيدة هو بالحقيقة غير مؤهل من ذاته لها.

فمثلاً قد يكون الآدمي غير معصوم، فيتقدم لاستلاب موقع المعصـــوم من العقيدة، وذلك لشعوره بالفوقية، وقد جاءنا التاريخ بكثير جداً من المضحك في سلوك من تقدم دون أهلية من عقيدته لاستلاب منصب خلافة رسولﷺ في إمرة المؤمنين، وشر البلية ما يضحك.

وكذلك قد يكون غير المؤهل في فقه العقيدة قد استلب موقع المجتهد فيها، وهو في هذه الحال، أما إن يعمل بتكليفه من هذا الموقع، فيخطأ ويعم الخطأ الجميع أو لا يعمل فيعطل هذا الموقع الكبير عن العطاء.

او قـد يتقدم الـذي يظن انه مؤمن بالمعنى الخاص وانه مجتهـد وانه متمكن من تفسير القرآن ليس لانـه جدير بهذا المهمة تكليفا، بل لانه يظن انه يشرّف هذا المهمة!.

وبهذا فالفوقي لابد ان يكون وسيلة للطعن بالدين شاء ام ابى، ودونكـــم التاريخ فاقرأوه.. والانكى من هذا اننا قد نسب الفوقيين في التاريخ على المنابر كل يوم ولا ندري اننا مثلهم!!.

إن الشعـــور بالاستلاب، بالفوقية، هو خلل في عقيدة الآدمي، يأتي أصلاً من ثغرة في بناء حجم عقيدته في نفسه، والمصاب بهذا الخلل لا يعي أنه فوقي، لأن شعور المصاب بها يأتي من اللاوعي (العقل الباطن)، مما يتشكل بها بعـــد موضوعي وهمي لعقيدة المصـــاب بهذا الشعور. فهي أحكام عقلية باطنة لم تبح

الظروف لها الخروج إلى حيز الواقع بسبب استقباحها من النفس المصابة ذاتها بالاستلاب، فتأخذ طريقها إلى أعماق النفس -اللاوعي- فيتشكل بعدها الروحي به.

إذ كما يوجد عند الإنسان عقل باطن في اللاوعي، كذلك توجد عنده في البعض عقيدة في اللاوعي، فهي بطن يغلف الحجم الظاهر للآدمي من الداخل دون وعي للآدمي بها، ولكنها حتمية في توجيهه بأحكامها، ولذلك فإنك إن نبهت الفوقي لفوقيته فإنه ينكر ولا يرضى وقد يثور، ويتهمك بأنك تظلمه وتضطهده، أو أنك تعيش في عالم آخر لا تعلم بشيء مما يجري في دنياك. ولمثل هذا شواهد في القرآن عندما يظن قارون ان كل ما اوتي هو لعلميته وامكاناته:

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [سورة القصص: ٧٨].

والفوقية استلاب للعقيدة مهما كانت كبيرة ونامية وعلمية.

والذين يتصدون للتفسير دوما هم الفضلاء. وللتخلص من الاستلاب الماحي للعقيدة يتطلب من المفسر صدق التاسي بالمعصوم ومعرفة قدره والتمسك بالثقلين العاصمين والاعتبار بالمعايير والضوابط العاصمة.

ان الورع سبيل رائع يستحقق للانسان معه السداد من الله تعالى وان العلم مع التقوى تحمي صاحبها من كل هلكة، ويمنحه سبب توفيق الله تعالى الى رضاه فلا يعدم ذلك الذي توجه لتفسير كلام الله تعالى، وكان متعضا متواضعا مقدرا لنفسه حق قدرها.

ان مجرد الخوف من الفوقية في نفس المفسر يمثل ضابطا مانعا من داء ابليس..

قال الامام علي(عليه السلام) في داء ابليس:

(الحمد لله الذي لبس العز والكبرياء وأختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمى وحرما على غيره، واصطفاهما لجلاله، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده. ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين،

فقـــال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب، ومحجوبات الغيوب: (إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس) اعترضته الحمية فافتخر على آدم بخلقه، وتعصب عليه لاصله. فعدو الله إمام المتعصبين، وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية، ونازع الله رداء الجبريـــة. وادرع لباس التعزز، وخلع قناع التذلل ألا ترون كيف صغره الله بتكبره، ووضعه بترفعه. فجعله في الدنيا مدحورا، وأعد له في الآخرة سعيرا..

ثم يقول عليه السلام:

(ما كان الله سبحانه ليدخل الجنـة بشرا بأمر أخرج به منها ملكا؛ إن حكمه في أهل السماء وأهل الارض لواحد)[19].

هذا ما قدرنا عليه من ضوابط يتسلح بها المفسر لتقليل العسف والله تعالى هو المحيط بعلمه، نستغفره ونتوب اليه ونأمل ان يهدينا لأقرب من هـذا رشـدا، وهو الهادي وهو ارحم الراحمين.

(١٩) نهج البلاغة ج٢: ص: ١٣٨ -١٣٩ (الخطبة القاصعة).